كان ثيودور هرتسل معاصراً لسيغموند فرويد الذي ولد قبله بسنوات أربع فحسب، وكان كلاهما من يهود الحضارة الالمانية؛ أولئك اليهود الذين أفرزوا الفكر الصهيوني والفكر الفرويدي في الوقت عينه تقريباً.

وموقف فرويد من الصهيونية غني عن البيان. وهو موقف لا يتعارض، بحال، مع ما هو معروف عنه من الحاد صريح؛ فالصهيونية، في النهاية، ليست سوى موقف فكري عنصري يقوم على التسليم بتمايز اليهود عن غيرهم، وعداء هؤلاء الأغيار لهم، وان حل تلك المشكلة لا يتأتى الّا بتمسّك اليهود بيهوديتهم، وتأكيد تمايزهم، ومقاومة أية مساعي لدمجهم في مجتمعاتهم الأصلية. وبالتالي، فان الحاد فرويد لم يمنعه من تأكيد انتمائه الى اليهودية، والتزامه بالصهيونية، فكراً وتنظيماً. فلقد أنضم فرويد الى جمعيـة «بنـاي بريث» (ابنـاء العهد) الصهيونية منذ العام ١٨٩٥، أي وهو في سن التاسعة والثلاثين؛ واستمرت عضويته فيها طوال ٤٤ عاماً حتى وافته المنيّة. كما ظل مواظباً، لعدة سنوات، على حضور اجتماعاتها نصف الشهرية، وفيها ألقى اولى محاضراته عن تفسير الاحلام. ولقد عرفت له الجمعية الصهيونية فضله، فاحتفلت، في السادس من أيار (مايو) ١٩٢٦، بعيد ميلاده السبعين؛ وكان خطاب فرويد في هذه المناسبة بالغ الدلالة والوضوح، حيث ورد فيه: «... ان كونكم يهوداً لأمر يوافقني كل الموافقة، لأنني نفسي يهودي... انني مدين بالفضل لطبيعتي اليهودية في ما أملك عن صفتين مميزتين لم يكن في وسعي الاستغناء عنهما حيال حياتي الشاقة... فلأنني يهودي، وجدت نفسي خلوا من التحيزات التي ضلّلت غيري دون استخدام ملكاتهم الذهنية؛ وكيهودي، كنت مستعداً للانضمام الى المعارضة وللتصرّف دون موافقة الاغلبية الساحقة. وهكذا، وجدت نفسي واحداً منكم، اقـوم بدوري في اهتماماتكم الانسانية والقومية. واكتسبت اصدقاء من بينكم، وحثثت الاصدقاء القليلين الذين تبقوا لي على الانضمام اليكم...».

ولعل تلك الكلمات ليست في حاجة الى تعليق. فالرطانة الصهيونية عن الخصائص اليهودية تعلن عن نفسها، وكذلك الحديث عن الاهتمامات القومية للحركة الصهيونية، والسعي الى كسب الانصار لها. وعلى أي حال، فقد كان هذا خطاباً عاماً، حرص فيه فرويد على الّا يذكر «الصهيونية» صراحة، تاركاً اياها لقليل من فطنة القارىء. وبطبيعة الحال، فان مثل ذلك الحذر لم يكن له مبرر في خطابات فرويد الشخصية التي كان يتبادلها مع زملائه وتلامذته ومريديه. ففي خطاب شخصي أرسل فرويد به الى احدى تلميذاته من المحللات النفسيات، وهي اشبيلراين، بعد ان علم بأنها توشك على ان تضع طفلاً، كتب فرويد: «... وأود لو خرج الطفل ذكراً ان يصير صهيونياً متعصباً... اننا يهود، وسنظل يهوداً... وسيبقى الآخرون، على استغلالهم لنا، دون ان يفهمونا، او يقدرونا حق التقدير». والخطاب مؤرخ في آب (اغسطس) ١٩١٣، وان كان نشره قد تأخر الى العام ١٩٨٢.

ولعلنا نستطيع ان نكتفي بتلك النماذج للتدليل على انتماء فرويد الى الفكر الصهيوني، وارتباطه بالتنظيمات الصهيونية. ولكن ذلك كله قد لا ينال من الرجل كعالم، بل كمؤسس لفرع من فروع العلم نال من الشهرة والذيوع الشيء الكثير. وقد يبدو للبعض ان فكر الرجل لم يؤثر في علمه، وان استثمار الصهيونية لعدد من الافكار الاساسية للتحليل النفسي كان محض مصادفة. فكثير من اليهود ـ بل ومن غير اليهـود ـ استهـواه الفكـر الصهيوني. وكثير منهم ارتبط، بدرجة أو بأخرى، بالتنظيمات الصهيونية. ومن بين هؤلاء، بطبيعة الحال، عدد من مشاهير العلماء في مختلف فروع المعرفة. وليس من المنطق في شيء ان نرفض علمهم لمجرد انهم صهيونيون، قولاً أو فعلاً. ولكن الامر بالنسبة الى فرويد كان مختلفـاً تمـامـاً. فهو لم يكن مجرد عالم يهودي ملحد ينتمي الى الفكر الصهيوني ويتعاطف